

طالبعلم

الأستاذ حسين الطوخي

البيت تحيط به اشجار بواسق .. أزهار الليمون والنانج تمطر الجو
بالأرج الفواح ، والحديقة الصغيرة الغناء تتمايل في جنباتها مع التسمات
الرفيفة ، شجيرات الورد والريحان والياسمين ..

وبينما الشيخ ((محمد بن جرير الطبري)) صاحب الدار يجلس بين سماره
وأصحابه في ذلك اليوم من صيف عام ٢٢٤ للهجرة ، اذ اقبل خادم من داخل
الدار يسر في اذنه أمرا قام على أثره الشيخ مستاندا من ضيوفه لحظات ثم
يعود ..

قد رزقه الله بمولود ذكر رغبت أمه ان يختار له أبوه اسما ، وان يدعو
الله ان ينشأ نشأة طيبة في ظل أبيه الورع الطيب ..

وسرعان ما تساع النبا السار في ناحية ((آمل)) من أعمال طبرستان
بأرض فارس ، وأقبل وجهاء القوم وأكابر رجالهم يهنئون بمقدم ((أبي جعفر))
ويدعون الله ان يكون امتدادا لحياة أبيه الكريم ، وحافظا لمنهaje القويم .

وينشا الفلام نجيبا ذكيا فى اعطاف ابيه الميسور الحال ، المحمود الذكر والمقال ، ويحضر معه مجالس العلماء والفقهاء ، ويسمع الى احاديث الانتقاء التى تخلو من التفاسير والرياء ، ولا يدور على السنة قائلها سوى الصفاء والنقاء ..

ويتم ((ابو جعفر محمد بن جرير الطبري)) حفظ القرآن وله من المبرر سبع سنين ، ويؤدي الصلاة فى المسجد وهو ابن ثمانين سنين ، ويكتب الحديث وهو ابن تسع ..

والأب الفاضل كان بطبعه ورعا تقيا متصوفا يركن الى نعمة يعيش فى اعطافها ، وضيفة واسعة تدر عليه من خبرات أرضها الطيبة ما أغناه عن سؤال الناس ، والتماس الرزق بالكتاب والقرطاس .

ويوم انس الأب يقظة فى فؤاد ولده ، ورجاحة فى عقله ، ونزوعا الى طلب العلم ، وشهوة الى لقاء العلماء والمحدثين والفقهاء ، دفعه الى الرحلة فى سبيل العلم حيث كان ..

فى تلك الآونة الموضئة من تاريخ الامبراطورية الاسلامية ، واعلام الخلافة العباسية تخفق عالية شامخة ، وحضارة الاسلام الخصبة تغزو ممالك الشرق حتى وصلت الى مشارف الصين ، وتتوغل فى الغرب حتى تلامس شطآن اسبانيا ، فى تلك الآونة كانت محافل العلوم والآداب الاسلامية مبنوثة فى كل بلد عربي تؤكد اصالة الدين الجديد والآخر الذى جاء هاديا للبشرية ، ليحفظ كرامة الانسان ويخلصه من ظلم أخيه الانسان ، ويؤكد ان لا فضل لانسان على انسان الا بتقوى الله وصالح الأعمال .

كانت حياة المسلمين وحاجاتهم حينئذ مكفولة وميسورة ، واسباب العيش هينة وموفورة ، وكان المسلمون يعين بعضهم بعضا ، ويسمى غنيهم الى فقيرهم يمد اليه مما أفاضه الله عليه من سعة فى الرزق دون من او استعلاء ، او تفاخر وخيلاء ..

كما كانت الأسواق عامرة بخيرات الأرض الطيبة التى ترد اليها من كل حذب وصوب ، ومن أطراف الشرق والغرب ، وهى يومئذ تباع وتشترى دون احتكار واخفاء ، او تحبس بعيدا فى أسواق سوداء .

ورحل ((ابو جعفر)) عن مسقط رأسه فى طبرستان ولم تبلغ سنه الثانية عشرة ، وكفاه أبوه مؤونة العيش ومعاماة الرزق ، فكان يرسل اليه نفقته اينما حل او حيث اقام ، وصانه بذلك عن عطايا الخلفاء ، واستمناح الأمراء والوزراء ، الأمر الذى زهده فى مناصب الدولة ، وأعانه على الانقطاع الى المدارس والتأليف والرواية والتصنيف ..

رحل أول ما رحل الى ((الري)) وما جاورها من البلاد ، فاخذ عن شيوخها ، ودرس فقه العراق على ((أبي مقاتل)) وكتب عن ((أحمد بن حماد

الدولابي» و «سلمة بن الفضل» و «ابن حميد الرازي» وجميعهم أئمة أجلاء ، معطاءون فضلاء ..

ثم أحب «أبو جعفر» أن يأخذ عن «أحمد بن حنبل» في علم التفسير ، فرحل إلى بغداد ، وهي يومئذ كعبة القصاد ، من شتى الأمصار والبلاد ، وقيل أن يحط بها الرحال ، ترمى إليه نبا وفاته ، فعدل مجزونا عن الإقامة في بغداد ، واتخذ طريقه إلى البصرة ، ومنها إلى الكوفة ، وهي أيامئذ ملتقى الصديقين من العلماء والمحدثين ، والرواة والفقهاء ، ومن ثم أخذ عن «هناد بن السري» و «إسماعيل بن موسى» الحديث ، وعن «سليمان بن خالد الطلحي» القراءات ..

في الكوفة ، يحضر «أبو جعفر» جلسات «أبي كريب محمد بن الملاء الهمذاني» أمام علم الحديث في الكوفة .. بيد أنه كان على جفاء وخشونة في خلقه ، ولا يسلم الآخذون من علمه من شطحات لسانه ، ولذات بيانه !

لكن «أبا جعفر» وقد راضى نفسه على تلقي العلم مهما صادف من مشقات ، رضي أن يتحمل ثقل خشونته ، وسوء طبعه وسلطانه ، وحين علم «أبو كريب» أنه يحفظ عنه ما يمليه ، عظم لديه ، وكان أن مكثه من حديثه ، وأخذ يلحظ مع تصاقب الأيام أن خشونته معه قد زالت ، وأن صرامته قد تلاشت ، وكانت حصيلة من الجلوس إليه ، أنه سمع منه وحفظ عليه أكثر من مائة ألف حديث .. !

ولما أن روى «أبو جعفر» شهرته من علم الكوفة ، ناقت نفسه للنزوح إلى بغداد ليأخذ في مدارس علوم القرآن ، فتبد إليها الرحال ، وقصد من فوره إلى «أحمد بن يوسف التغلبي» المقرئ ، وانقطع إليه زمانا ، ثم جنح إلى دراسة فقه الشافعي ، وكان هناك «الحسن بن محمد الصباح» و «أبو سعيد الاصطخري» من أئمة الشافعية ، ولم يلبث أن اتخذه مذهبا وأقتى به سنوات . وبغداد أيامئذ وهي حاضرة بني العباس ، غدت عروس البلاد ، وكعبة القصاد ، يشع منها نور المعرفة وضياء العلم المتكئ على حضارة الاسلام .

وكان يقيم بمصر في تلك الحقبة المضيئة في منتصف العام الخمسين ومائتين للهجرة ، بقية من أصحاب الشافعي وحاملي مذهبه : إسماعيل بن إبراهيم المزني ، والربيع بن سليمان ، ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، ودعته نفسه إلى اللقاء بهم والرحلة إليهم .

وفي طريقه إلى مصر ، عرج «أبو جعفر» على أجناد الشام وسواحلها وثغورها ، وأطال أيامه في بيروت على الخصوص ، حيث لقي «العباس بن الوليد البيروتي» المقرئ ، فقضى منها سبع ليال بالمسجد الجامع حتى ختم القرآن برواية الشاميين تلاوة عليه ، ثم تابع مسيرته إلى القسطنطينية حتى بلغها في سنة ثلاث وخمسين ومائتين للهجرة ، وكانت سنة يومئذ ثلاثين .

كان أول من لقي من علماء مصر «أبا الحسن السراج المصري» وكان ادبيا

متصرفا في فنون الآداب ، وكل من دخل الفسطاط من أهل العلم يلقاه ويتعرض له ، ويوم أن لقي « أبا جعفر » سألته عن فنون من الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فوجده على دراية في كل ما سأل ، أخذنا من كل علم ينصيب وافر . وحين سألته عن شعر « الطرماح » وجده يحفظه ، سألته أن يملئه عليه ويشرح له غريبه ، فأملأه عند بيت المال بجامع عمرو بن العاص .

وجمعت الرحلة إلى مصر « أبا جعفر » ببضعة نفر من العلماء الوافدين إليها لنفسى الفرض الذي ساقه إليها ، وكانوا قوما فضلاء يبتغون تحصيل العلم والمعرفة والتفقه في علوم القرآن ومدارسه شريعة الإسلام دون قصد إلى التكسب بعلمهم أو المتاجرة بدينهم ..

ويعاود « أبا جعفر » الطبري الحنين إلى بغداد ، ليستقر بها بعد طول طواف وابتماد ، وقد امتدت أقامته بمصر سنوات عاشها موقرا من كل عارفه ، مستوفيا حقه من تكريم محبيه ، دارسا لعلوم القرآن الكريم ، مجاهدا في تحصيل ما يعود عليه بالخير العميم ..

ويوم أن حط الرحال ببغداد سنة ٢٦٠ هجرية ، كان قد عزم على أن ينقطع للدرس والتأليف .

ولقد كان من المألوف أن يتكاثروا ذوي الحاجات والعلماء والشعراء على أبواب ذوي الجاه والسلطان لينالوا من عطائهم ، بيد أن الطبري كان نسيجا فريدا من العلماء ، عزوفا بطبعه عن الوقوف بأبواب أصحاب السلطة والكبراء ، غنيا بعلمه وكرامته عن الوقوف باعتاب الأثرياء ..

كان شغفه بتفسير القرآن يشغله وهو بعد صبي ، فأنشأ الطبري كتابه الكبير « جامع البيان في تفسير القرآن » وجعله ثلاثين جزءا بعدد أجزاء القرآن ، وقدم له برسالة في بيان الإعجاز وطرق القراءات ، وتفسير أسماء السور ، ثم تلاها بتأويل القرآن حرفا حرفا ، فذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين ، وكلام أهل الأعراب من الكوفيين والبصريين ، وجملا من القراءات واختلاف القراء فيما فيه من المصادر واللغات والجمع والتنثنية ، والكلام على ناسخه ومنسوخه ، وأحكام القرآن والخلاف فيه ، والرد على من كان من أهل النظر فيما تكلم به أهل البدع والرد عليهم ، وذكر فيه من كتب التفسير الموثوقة عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وعكرمة ، والضحاك بن مزاحم .

واشتهر هذا التفسير ، وطار ذكره في الآفاق ، وجاوز بغداد إلى غيرها من البلاد حتى قيل عنه : لو سافر رجل إلى الصين ليحصل على تفسير « الطبري » لم يكن ذلك غريبا أو عجيبا .. !

لم يشغل « أبو جعفر » نفسه بشيء سوى العبادة وقراءة آثار السلف الصالح ، ثم استفراغ ما يميته ويهضمه من دراسة وتأمل وتمحيص في عديد من

المؤلفات والرسائل الضافية ، والمصنفات الوافية ، حتى بلغت جملة تأليفه حتى وفاته ، ستة وعشرين كتابا كان اهمها كتاب « تاريخ الرسل والملوك » الذي فرغ من تصنيفه وعرضه في يوم الأربعاء ٢٧ من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثمائة هجرية .

ويعد كتاب « تاريخ الرسل والملوك » او « تاريخ الامم والملوك » اوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب اقامه الطبري على منهج مرسوم ، وساقه على نسق استقرائي شامل ، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والامانة والاتقان .

وقد بلغ « الطبري » الغاية في شرف النفس ، وكمال العفة ، ونظافة اللبس والأعضاء ، وحلاوة المعاشرة ، وحسن التفقد لآخوانه ، وجمال الرعاية لهم ، رقيق حواشي الكلام مع دعابة وظرف ، ورقة ولطف .

والحق أن « الطبري » قد جال في نواحي كل فن ، وضرب فيها جميعها بسهم حتى أصبح امام عصره . وقال عنه معاصروه : كان القارئ الذي لا يعرف الا القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف الا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف الا الفقه ، وكالحنوي الذي لا يعرف الا النحو ، وكالحاسب الذي لا يصرف الا الحساب ، وكان عالما بالعبادات ، جامعاً للعلوم ، واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره ، وجدت لكتبه فضلاً على غيرها .

وينتقل « أبو جعفر محمد بن جرير الطبري » الى جوار ربه يوم السبت ٢٨ من شهر ثوال سنة عشر وثلاثمائة للهجرة وسنه يومئذ قاربت سبعة وثمانين عاماً ، ودفن بداره في بغداد ، واجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم الا الله ، وصلى على قبره عدة شهور وسنين ، ورثاه خلق كثير من اهل الأدب والدين .

روى الشيخان والنسائي :

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْفَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَانْبَتَتِ الْكَلَّا وَالشَّجَرُ الْكَثِيرُ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ امْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا ، وَسَقَوْا ، وَزَرَعُوا . وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْحَانٌ : لَا تَمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تَنْبِتُ كَلًّا فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ . وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) .